العوامل المؤثرة في النشاط التجاري لسلطنة البَرْنُو من القرن 8- 10هـ/ 14- 16م
العوامل الطبيعية والأنشطة الاقتصادية نموذجًا

أ. انتصار جابر(*)،

أ.د. حسين مراد(**)، أ.د. سوزي أباظة(***)

- **مُلخص:**

ترصد هذه الدراسة العوامل المؤثرة في النشاط التجاري لسلطنة البَرْنُو من القرن 8- 10هـ/ 14- 16م العوامل الطبيعية والأنشطة الاقتصادية نموذجًا، من خلال تناول دور العوامل الطبيعية من حيث تأثير موقع السلطنة والنطاق الجغرافي الذي شغلته سلطنة البَرْنُو، مما ساعد على تنوع مواردها الطبيعية من ناحية،كما انعكس التباين البيئي في المناخ والظروف الجغرافية وعدم الاستقرار الموسمي المنطقة الديناميكية والتجدد داخل المجتمع من ناحية خرى، ومن ثم السعي إلى التغيير والتبادل المستمر، وأصبح حوض بحيرة تشاد يشكل مفترق الطرق التجارية التي مرت بالمنطقة عبر الصحراء من ناحية ثالثة. أما تأثير تنوع الأنشطة الاقتصاديةعلى النشاط التجاري في سلطنة البَرْنُو، فيشمل تأثيركثير من الحرف؛ منها الرعي والزراعة إلى جانب بعض الصناعات المتباينة، فضلًا عن حرفة صيد الأسماك، فاتسمت السلطنة بتنوع مقوماتها الطبيعية والاقتصادية وصنفت كمنطقة تجارية مثمرة، لاسيما مع تقديمها عددًا من السلع الثمينة التي لا غنى عنها، فتبع ذلك نموٌ للنشاط التجاري وازدهارٌ اقتصاديٌّ شهدته السلطنة. وقد اتبعت هذه الدراسة منهج البحث التاريخي القائم على التحليل والربط، مع تقسيم الدراسة تقسيمًا موضوعيًا وزمنيًا.

كلمات مفتاحية: كانم- برنو، سلطنة البَرْنُو، السودان الأوسط، سلاطين البَرْنُو، النشاط التجاري.

(*) مدرس مساعد بقسم التاريخ بكلية الدراسات الأفريقية العليا- جامعة القاهرة

(**) أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

(***) أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

Abstract:

This study monitors "The Effect of Natural Resources and Economic Factors on the Commercial Activities in Bornu Sultanate from the 8-10 AH / 14-16 AD centuries ", The geographical location played vital role in the diversity of the sultanate's natural resources. And also, by looking at how the climate changes and the environmental discrepancies reflected profoundly on the social changes and the continuity and changes of the commercial activities. The location of Chad Lake represented the crossroad of the trade routes of the region. The economic diversification enhanced the Sultanate's ability to promote its commercial activity, it includes the establishment of many crafts, including grazing and agriculture, in addition to some different industries, as well as the fishing craft. This paper thus argues that the Sultanate's commercial development was characterized by the diversity of its natural resources and economic activities. Especially within the provision of many invaluable and indispensable commodities, and this was followed by the economic prosperity witnessed by the Sultanate.

The study based on historical methodology with various tools according to chronological sequences.

Keywords: Kanem-Bornu, Bornu Sultanate, Central Sudan, the Bornu sultans, Commercial activity**.**

- **مُقدمة:**

أسهمت عوامل عديدة في قيام النشاط التجاري وتطوره في سلطنة البَرْنُو؛ منها: العوامل الطبيعية وتنوع الأنشطة الاقتصادية، وتتمثل العوامل الطبيعية في الموقع والامتداد الجغرافي، إلى جانب التغيرات البيئية التي شهدتها المنطقة، وتأثير ذلك على قيام هذا النشاط التجاري في سلطنة البَرْنُو، أما تنوع الأنشطة الاقتصادية فيشمل الحرف التي عرفتها المنطقة كحرفتي الرعي والزراعة إلى جانب بعض الصناعات، كصناعة المنسوجات والصناعات الحديدية والجلدية وبعض الصناعات اليدوية البسيطة، فضلًا عن حرفة صيد الأسماك.

أولًا– العوامل الطبيعية:

تتمثل العوامل الطبيعية في الموقع والامتداد الجغرافي، فضلًا عن التغيرات البيئية التي شهدتها المنطقة.

1. الموقع والامتداد الجغرافي:

نشأت سلطنة البَرْنُو في إقليم السودان الأوسط[1] وتحديدًا جنوب غرب بحيرة تشاد[1]، وتوسعت ناحية الشمال حتى امتدت إلى ما وراء صحراء زويلة[2] قاعدة إقليم

(1) يمثل إقليم السودان الأوسط الإقليم الرابط بين إقليمي السودان الشرقي والسودان الغربي، وهو إقليم له امتداد للمناطق البيئية نفسها، الممتدة أسفل الصحراء. ويشغل السودان الأوسط المناطق المحيطة ببحيرة تشاد؛ حيث تحده إمارات الهوسا، من الغرب وإقليم دارفور من الشرق. والصحراء الكبرى شمالاً والغابات الاستوائية جنوبًا، وفي تقسيم آخر لعدد من المؤرخين، قسمت المنطقة إلى ثلاثة أقسام موزعة بين الشمال والوسط والجنوب، فشمالًا بلاد آيروبرنو وبلاد زمبراماZambarmaa، ووسطها إمارات الهوسا السبع، والقسم الجنوبي بلاد بيابياBebayi، للمزيد راجع: العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ص46- 47.؛ عبد القادر ابن المصطفى مالم تفا: بعض أخبار هذه البلاد الحوسية والسودانية وطرف أخبار ملوكها وسلاطينها، مركز المخطوطات للعلوم الإنسانية، مخطوطة بقسم المخطوطات العربية والأعجمية، جامعة نيامي، النيجر، تحت رقم 1415، ورقة 2.؛ انتصار جابر يونس: الحياة السياسية في سلطنة البرنو خلال القرنين التاسع والعاشر

فزان[3]، ووصلت بحدودها الشرقية إلى بلاد النوبة[1]، وامتدت بحدودها الغربية؛ حيث ضَمَّت في بعض فترات قوتها قسمًا من بلاد الهوسا[2]، أما الحدود الجنوبية للسلطنة فإنها بقيت ثابتة دون توسع لوجود الغابات الاستوائية[3].

الهجريين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 2016، ص3، 4.

(1) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت،1970،ص94. انظر أيضًا:

Lange,Dierk: Biblical Patriarchs from a pre-canonical source mentioned in the Diwan of Kanem-Bornu (Lake Chad region), University of Bayreuth, Germany, (2009), p.589.

(2) زَوِيلة بفتح أوله، وكسر ثانيه، وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام، بلدان أحدهما زويلة السودان مقابل أجدابية في البر بين بلاد السودان وإفريقية، ويذكر البكري أنها مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حد بلاد السودان الأوسط، وتعد زويلة من أقدم المدن السياسية والتجارية في منطقة فزان، وكانت قاعدة إقليم فزان في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وتحت حكم السودان انظر: البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص11؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، دار صادر، بيروت، 1977، ص159، 160؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، ص149. انظر أيضًا:

Jacoba, Adamowa, etc.: survey of Africa, London, 1840, p.208.

(3) فزان تقع بين طرابلس شمالًا وتبستي جنوبًا، وهي منطقة تتناثر فيها الواحات التي تعد امتدادًا لواحات القسم الأوسط من الصحراء الكبرى، وتتميز هذه المدينة بوجود القصور العظيمة والقرى الكبيرة العامرة، سُكانها أغنياء يملكون النخيل والأموال وتضم عدة مدن أهمها مدينة زويلة،فتحها عقبة بن نافع سنة ست وأربعين من الهجرة، وقبض على حاكمها وفرض عليهم ثلاثمائة وستين عبدًا. انظر؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة 1961م، ص 262، 263.؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ص440.؛ الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج2، ص146.

وعلى هذا وصلت سلطنة البَرْنُو إلى أقصى اتساع لها إذ سيطرت على المنطقة الواقعة بين دائرتي عرض 10° و 23° شمالًا، وخطي طول 10° و18° شرقًا[4]؛ مما

---

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، 1863، ص13.؛ يجعل الدمشقي (ت727هـ/1326م) حدود السلطنة الشرقية تمتد حتى تتصل بنهر النيل حيث يوجد الأحباش (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبزج، 1923، صـ241)، والحقيقة أن الحدود الشرقية لهذه السلطنة لم تصل إلى نهر النيل حتى أقصى فترات اتساعها، فالإدريسي (ت 560هـ/ 1165م) يذكر عند حديثه عن سكان نجيميأنهم يجاورون النوبة من جهة الشرق وبينهم وبين النيل ثلاثة أيام، ويؤكد ابن سعيد (ت 673هـ/1275م) ما ذكره الإدريسي حول الحدود الشرقية للسلطنة؛ حيث يذكر أن بلاد الزغاوة تتصل بأرض النوبة، وأن هذه البلاد تتبع الكانم. الإدريسي: نزهة المشتاق، صـ12؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص96.

(2) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، صـ11.؛ مفتاح يونس الرباصي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو (7– 10هـ/ 13– 16م)، ط1، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2008، ص15.؛ انظر أيضًا خريطة رقم (1) توضح موقع سلطنة البرنو.

(3) انظر خريطة رقم (1) توضح موقع سلطنة البَرْنُو، وللمزيد راجع؛ تاديوزليفيتسكى: دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، لبنان، 1994، جـ3، ص304–310؛ فضل كلود الدكو: الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم من 600–1000هـ/ 1200–1600م، ط1، كلية الدعوة الإسلامية، القاهرة، 1998، ص29.؛ انظر أيضًا:

Jr, George.T. Renner: The Geographic Regions of the Sudan, Economic Geography, Vol. 2, No. 2 (Apr., 1926), p. 256; Lange,Dierk.: Biblical Patriarchs from a pre-canonical, p.589.

(4) الإدريسي: أنس المهج وروض الفرج – قسم شمال أفريقيا وبلاد السودان – تحقيق الوافي نوحي، ط1، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، 2007م، ص111؛ مصطفى أبوشعيشع: برنو في عهد الأسرة الكانمية 1814– 1969، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009، ص11.؛ شعبان محمود محمد راشد: القبائل العربية الليبية في السودان الأوسط ودورها في تاريخ المنطقة في الفترة 1795– 1911م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، د.ت، ص23–24.؛ انظر أيضًا:

Notes on Bornu Province, Kanuri tribe Laws and customs, National Archives Kaduna, 1908, EAP535/2/2/7/94, p.1,

أهلها لأن تضم داخل حدودها حزامًا عريضًا من مراعي السافانا(1)، وقد ساعد هذا الامتداد الكبير لهذه السلطنة على تنوع مواردها الطبيعية التي جعلت أسواقها ملتقىً للقادمين إليها سواء من شمال الصحراء أم المناطق المتاخمة لها جنوب الصحراء.

ويضم هذا النطاق الجغرافي الذي شغلته سلطنة البَرْنُو ثلاث مناطق متباينة مناخيًا، يمثل النطاقُ الأول المنطقةَ الصحراوية وتمتد من واحة كوار(2) حتى بحيرة تشاد، ويعرف هذا النطاق بالإقليم الصحراوي؛ وذلك لجدبه وقلة الأمطار فيه، وفقره في الحياة النباتية باستثناء بعض الحشائش والشجيرات القصيرة التي تنمو في بعض الواحات والمنخفضات المتفرقة وأطراف الصحراء(3). أما النطاق الجغرافي الثاني فيعرف بالمنطقة الساحلية حيث تقع بحيرة تشاد، ويُعد هذا الإقليم الأهم؛ لتنوع الحياة النباتية والحيوانية نتيجة لكثرة الأودية والأنهار الموسمية التي تجري فيه عقب هطول الأمطار، وتُعرف ثالث هذه المناطق بالمنطقة السودانية وتقع جنوب برنو حتى منطقة جبال مندرا(4)، وتتصف بمناخ السافانا حيث الحرارة المرتفعة طوال العام، والأمطار الغزيرة، وتنمو في هذا النطاق حشائش السافانا في الجنوب(5).

---

(1) Connah, Graham: The Daima Sequence and the Prehistoric Chronology of the Lake Chad Region of Nigeria, The Journal of African History, Vol. 17, No. 3 (1976),p.321,

(2) يقع إقليم كوار جنوب فزان في الجنوب الليبي فوق رأس المفازة على رأس جبل وعر بينه وبين فزان مسيرة خمس عشرة ليلة كما قدرها البكري من خلال مسيرة الجيش. انظر: البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص13.

(3) خالدي مسعود: الجاليات العربية والبربرية في السودان الأوسط والغربي من" القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري الحادي عشر إلى السادس عشر الميلادي"، ط1، المكتبة المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة،2014،ص40.؛ شعبان محمود محمد راشد: القبائل العربية الليبية،ص22–23.

(4) RémiDewière.: L’esclave, le savant et le sultan: Représentations du monde et diplomatie au sultanat du Borno (XVIe-XVIIe siècles,Thèse de doctoratd’histoire,Université Paris 1 Panthéon Sorbonne, 2015, p.180

(5) شعبان محمود محمد راشد: القبائل العربية الليبية، ص23؛ خالدي مسعود: الجاليات العربية والبربرية، ص40.

وتتميز هذه السلطنة أيضًا بثلاثة مواسم فصلية؛ أولها موسم الجفاف البارد الذي يبدأ من أواخر شهر نوفمبر ويمتد إلى منتصف شهر فبراير، ويمتاز بالجفاف والبرودة والرياح الجافة المتجهة نحو الشمال الشرقي عبر الصحراء الكبرى، وثاني المواسم هو موسم الجفاف الحار الذي يمتد من شهر مارس إلى شهر يونيو، ويختص بالجفاف والارتفاع في درجة الحرارة[1]، أما ثالثها فهو موسم الأمطار الذي يبدأ من شهر يوليو وحتى أواخر شهر أكتوبر، ويتميز بهطول الأمطار التي تقل كلما اتجهنا نحو الشمال، ويتراوح معدلها السنوي بين 200 إلى 500 مم متجهة من الجنوب إلى الشمال. وتتشكل خلال هذا الموسم عدد من البرك والبحيرات الصغيرة في جميع أنحاء البلاد، كما تظهر بعض المستنقعات، التي تتبخر تدريجيًا خلال موسم الجفاف، ومن الملاحظ أن سقوط الأمطار كان يصاحبه نمو في الأعشاب؛ لذلك تعتمد كثافة الغطاء النباتي جزئيًا على كمية الأمطار،ففي الشمال حيث تقل كمية الأمطار، ويتناثر الغطاء النباتي ويغلب عليه العشب الموسمي خلال موسم الأمطار الذي سرعان ما يجف في الموسم التالي،أما في الجنوب فيتزايد سقوط الأمطار حيثتنمو أشجار دائمة الخضرة لاسيما أشجار السنط وحشائش السافانا[2].

وينظر إلى أراضي السافانا العشبية على أنها ممر طبيعي للسلطنة، بسبب عدم وجود حواجز طبيعية، مما جعل التنق لسهلًا بالنسبة للتجار والرعاة والمحاربين على حد سواء؛وسمحت أيضًا بالاستخدام المكثف للخيول، وساعدت حكام الأسرة السيفيةعلى الهجرة من كانم في شرق بحيرة تشاد إلى برنو في الغرب دون أي عائق[3].

(1)Mohammed, Kyari: Man, and Environment in Borno: A Historical account, Journal of the Environment, Vol. 2, No. 1, 2007, p. 22

(2) Sarch, Marie-Thérèse. & Birkett, Charon.: Fishing and Farming at Lake Chad: Responses to Lake-Level Fluctuations, The Geographical Journal, Jun. 2000, Vol. 166, No. 2 (Jun. 2000), p. 156.; Jr, George .T. Renner: Op.Cit.,., p. 256- 259.

(3) Mohammed, Kyari: Man, and Environment in Borno, p. 22

ويتكون حوض بحيرة تشاد من سهل واسع تغطيه الأودية والأنهار والبحيرات، وتحيط به مرتفعات من الجبال والهضاب الشاهقة؛ منها: جبال تبستي[1] التي تميزت بأنها جبال صخرية بركانية، وجبال الأندي في الشمال[2]. وجبال الكاميرون في الشرق، وهضبة جوس التي اشتهرت بمناجم القصدير في الجنوب[3]، وساعدت هذه المرتفعات في انحدار السطح نحو الجنوب الغربي، فأصبح اتجاه المياه نحو مركز البحيرة عملية طبيعية[4]، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال الممرات المائية[5].

(1) جبال تبيستيTibsti الواقعة جنوب زويلة وفزان والتي وصفتها المصادر العربية باسم جبل (طنطة) كمصدرٍ مهمٍ لاستخراج الحديد الجيد؛ حيث ذكر الإدريسي ذلك، ويؤيده أبو الفداء في القرن الثامن الهجري بذكره "في جنوبي فزان وودان مجالات أزكان وهم بربر مسلمون وفي جنوبهم جبل طنطة وهو كبير ممتد من الشرق إلى الغرب نحو ست مراحل وفي أسفله معدن الحديد الجيد، للمزيد انظر؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص116.؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص137.

(2) جودت حسين جودت: جغرافية إفريقية الإقليمية، دار النهضة الغربي، بيروت، 1981، ص49-50؛ شكري صالح: السودان الأوسط مملكة كانم برنو من سنة (478- 1009هـ/ 1068-1600م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004م، ص20؛ خالدي مسعود: الجاليات العربية والبربرية، ص32.

(3) حمد محمد حمد الجهيمي: العلاقات التجارية بين طرابلس ومملكة الكانم – البرنو فيما بين القرنين السابع وحتى النصف الأول من القرن العاشر الهجري، كلية الآداب والعلوم جامعة عمر المختار – فرع درنة، د.ت، ص12.؛ علي حامد خليفة الطيف: المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط، ط1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2003، ص108.؛ انظر أيضًا:

- Trimingham, J.S.: A History of Islam in West Africa, London, 1970,pp. 16-17

(4) شكري صالح: السودان الأوسط، ص19.

(5) Notes on Bornu Province, p.1

وقد تعددت الموارد المائية في المنطقة، لتشمل عددًا من الأنهار والبحيرات التي غطت حاجة المنطقة للمياه منها نهري شاري[1]ولوجون[2]، ويلتقي نهر شاري بعدد من الروافد الصغيرة منها نهر السلامات ونهر كيتا ونهر أوك ونهر سارا، وتتدفق هذه الأنهار من الجنوب الشرقي نحو بحيرة تشاد[3]. وفي الغرب والشمال الغربي وجد نهركومادوجي يوبي Yubekomadugu[4]. وإلى جانب هذه الأنهار وجدت عدة بحيرات أهمها بحيرة فترى وبحيرة تشاد[1].

(1) يبلغ طول نهر شاري حوالي 1200 كيلومتر، ومساحة حوض النهر 548,747 كيلومتر مربع، وينبع هذا النهر من جمهورية أفريقية الوسطى، ويتزود من الروافد بالجانب الأيمن من بحيرة أوك، ونهر كيتا، ونهر سلامات، ومن الجانب الأيسر يتزود ببحيرة سارا، ونهر لوغون، للمزيد راجع؛ محمود شاكر: تشاد، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، 1972، ص 26؛ محمد بن ناصر العبودي: المستفاد من السفر إلى شاد، د.ط، 2010، ص23.

(2) ويبلغ طول نهر لوغون حوالي 1000 كيلو متر، وينبع من جمهورية أفريقية الوسطى، ويشكل الحدود بين تشاد والكاميرون، وتأتيه مياه الأمطار الدائمة مما يمكنه من الوصول إلى بحيرة تشاد، ويلتقي بنهر شاري عند مدينة قصيري ويتابع مجراه سيره نحو بحيرة تشاد، انظر؛ محمود شاكر: تشاد، ص27؛ محمد بن ناصر العبودي: المستفاد من السفر إلى شاد، ص23.انظر أيضًا؛

Page, Willie. F.: Encyclopedia of African History and Culture, Volume 3, From conquest to colonialization (1500-1850), Library of Congress, USA ,2005, P.49; Sarch, Marie-Thérèse & Birkett, Charon: Fishing and Farming, p. 156.

(3) Hiribarren, Vincent: A History of Borno:Trans-Saharan African Empire to Failing Nigerian State, Hurst& Company, London, 2016, P. 36; Barth, H.: Travels and Discoveries in North and Central Africa, London, 1890, p. 360

(4) نهر كامادوجويوبي حاليًا ضمن الحدود السياسية التي تفصل دولتي النيجر ونيجيريا، وتم بناء العاصمة في موقع بالقرب من التقاء نهري كامادوجويوبيKomadugu Yobe مع كامادوجوجانا KamaduguGana، انظر: جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، ط1، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، 1984م، ص95. انظر أيضًا؛

وقد مثلت بحيرة تشاد أحد العوامل المؤثرة على التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمنطقة. فإلى جانب أهميتها التاريخية ودورها الفريد في تكوين الممالك والسلطنات في إقليم السودان الأوسط ولا سيما سلطنة البَرْنُو، فإن حوض بحيرة تشاد يشكل مفترق الطرق التجارية التي مرت بالمنطقة عبر الصحراء(2). وقد سمحت أيضًا بحركة الانتقال والهجرة للسكان فكانت سببًا لتوافد عدة مجموعات عرقية استقرت حول شواطئ البحيرة، وما تبع ذلك من تطورللنظم الزراعة والرعوية وتوسيع المستوطنات الدائمة حول البحيرة فضلًا عن التبادل التجاري والثقافي بين شمال الصحراء وجنوبها(3).

وبناءً على ما سبق نستنتج أن قوة سلطنة البَرْنُو ونفوذها اعتمد بشكل كبير على وجودها حول بحيرة تشاد، وما لها من ارتباطات وثيقة مع الصحراء الكبرى التي تمتد من ساحل المحيط الأطلسي في الغرب إلى البحر الأحمر في الشرق حيث تعد من أبرز المعالم الجغرافية في هذه المنطقة(4).

ورغم أن الصحراء تغطي ما يقرب من ثلث مساحة القارة الأفريقية وهي صحراء قاحلة وعرة لا يمكن اختراقها، وأنها منطقة عازلة، وحاجز بين إفريقيا جنوب الصحراء

Lange, Dierk: Ethnogenesis from within the Chadic State. Some Thoughts on the History of Kanem-Borno, Paideuma, Bd. 39 (1993), p.273.

(1) ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص94. انظر أيضًا؛

Page, Willie. F.: Encyclopedia of African, P.49

(2) انظر خريطة رقم (2) توضح طرق التجارة عبر سلطنة البرنو؛ انظر أيضًا؛

Maceachern, Scott: Burial Practices, Settlement and Regional Connections around the Southern Lake Chad Basin, 1500 BC–AD 1500, In book: Burials, Migration and Identity in the Ancient Sahara and Beyond Duke Kunshan University, 2019, p. 399.

(3)Haour, A. et al.: The settlement mound of BirninLafiya: New evidence from the eastern arc of the Niger River, Antiquity Publications Ltd, 2016, p.2.; Maceachern, Scott: Burial Practices, Settlement, p. 399.

(4)Mohammed, Kyari: Man, and Environment, p. 23

وشمالها[1]. فإن الواقع التاريخي غير ذلك[2] لا سيما أن عبور الصحراء كان أمرًا سهلًا وسريعًا نسبيًا مع استعمال الإبل في تلك الفترة من قبل التجار والمسافرين[3]. وأصبحت الصحراء جسرًا للتفاعل والتواصل والاتصال بين الجانبين، فهذه المساحة الفارغة يشع تاريخها بأنماط الحركة وتداول السلع وانتقال الأشخاص والأفكار[4]. وبناءً على ذلك فإن النظام التجاري عبر الصحراء هو النظام الاقتصادي المهيمن، مما ساعد في إثراء المناطق الواقعة جنوب الصحراء.

لقد أهل هذا الموقع الجغرافي المتميز سلطنة البرنو للقيام بنشاط تجاري مزدهر، وهذا يفسر أهمية هذا النشاط وتفرده بالنسبة لتلك السلطنة.

2. التغيرات البيئية:

كان للتغير البيئي الذي شهدته بعضُ مناطق السودان الأوسط وعانت منه، تأثيرٌ واضحٌ في الأنشطة السكانية في تلك المنطقة، وبخاصة النشاط التجاري، وقد ظهر

(1)Lydon, Ghislaine: Saharan Oceans and bridges, barriers and divides in Africa's
Historiographical landscape, The Journal of African History, Vol. 56, No. 1 (2015), p.46; Lecocq, Baz: Distant Shores: A Historiographic View on trans-Saharan Space,Journal of African History; Cambridge Vol. 56, 2015, P.13.

(2) ركزت الدراسات جل تركيزها في الآونة الأخيرة على تغيير تلك النظرة، وتم الاهتمام بدراسة "التجارة والهجرة عبر الصحراء" بدلًا من مصطلح "التجارة الصحراوية". وفي المصطلح الأول يتبين كيف أن الصحراء كانت جسرًا للتفاعل والتواصل والاتصال بين الجانبين، وإيضاحًا لدور الصحراء كحلقة وصل بين شمالها وجنوبها وكيف أن هذه المساحة الفارغة جعلت تاريخها يشع بأنماط الحركة وتداول السلع وانتقال الأشخاص والأفكار، للمزيد راجع؛

Scheele, Judith:Crossroads Regions: The Sahara, Online Publication Date: Aug 2016
DOI: 10.1093/oxfordhb/9780199935369.013.18, p. 1, 2

(3) Flynn, Sébastien: The Relationship between the Ottoman Empire and Kanem-Bornu during the reign of sultan Murad III, A Master's Thesis, Department of History, İhsan DoğramacıBilkent University, Ankara, September 2015, p.1

(4)Scheele, Judith:Crossroads Regions, p. 1, 2

ذلك التغير المناخي في صور عديدة؛ منها، ارتفاع درجات الحرارة وما تبعه من ارتفاع نسبة الرطوبة في الجو أدى لشيوع الجفاف على نطاق واسع في المنطقة، وترتب على ذلك عدة ظواهر أثرت بلا ريب في تاريخ المنطقة[1].

وكان من أسباب تلك التغيرات البيئية تفاقمُ الآثار الضارة للنشاط البشري[2]. ومثال ذلك الأعمال البشرية والحملات العسكرية العديدة التي نُسبت إلى حكام برنو، وما خلفته من تدمير بيئي لبعض المناطق، وذلك من أجل فرض الهيمنة السياسية وتوسيع رقعة أراضي السلطنة، دون النظر إلى توابع هذه الحروب على البيئة من أضرار[3]. فإذا نظرنا إلى الحملات الحربية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي التي قادها السلطان إدريس ألوما(979– 1012هـ / 1571– 1603م)، وما خلفته من توابع على البيئة، فسيلاحظ أن هذا الماي أسهم بشكل كبير في إزالة الغابات في شمال برنو ووسطها[4]، إلى جانب ممارسة أعمال الحفر للخنادق، وسياسته القائمة على حرق الأرض والزروع مما أدى إلى تدمير كثير من الأراضي الزراعية والمحاصيل وقطع الأشجار[5]. وبالمثل، أسهم تحديث أدوات الحرب واستخدام الأسلحة النارية، في الحروب خلال فترة حكمه وما تلاها، إلى زيادة الآثار البشرية الضارة على البيئة[6].

(1) Nicholson, Sharon Elaine: A climatic chronology for Africa: synthesis of geological, historical, and meteorological information and data, Ph.D. thesis, University of Wisconsin, Madison, I976, p.160- 167

(2) Kyari, Mohammed: The Munein Pre-Colonial Borno, Berichte des Sonderforschungsbereichs 268, Bd. 2, Frankfurt a. M. 1993, p.23.

(3) الإمام أحمد البرنوي: كتابمن شأن إدريس ألومه، المطبعة الأميرية، كانو، د.ت، صـ15.انظر أيضًا؛

Fisher, Humphrey.J. and Rowland, Virginia: Firearms in the Central Sudan, The Journal of African History, Vol. 12, No. 2 (1971), p 217.

(4)Lange, Dierk**:** Ethnogenesis from within the Chadic, p.197.

(5) كتاب من شأن إدريس ألومه، صـ9، 10.

(6)Kyari, Mohammed: TheMunein Pre-Colonial, p.27.

ولعل أهم تلك الظواهر التي شهدتها المنطقة وفقًا لذلك التغير البيئي الذي حدث هو تقلصُ مساحة بحيرة تشاد الواقعة على الأطراف الجنوبية للصحراء، فالأدلة الجيولوجية تشير إلى أن الظروف المناخية أدت إلى انحسار مستوى البحيرة وانكماشها، وبخاصة أن بحيرة تشاد هي بقايا بحيرة أكبر بكثير معروفة في التاريخ باسم ميجا تشاد، والتي انخفض مستواها بمرور الزمنبسبب التدهور البيئي، كما يعد التصحر من أهم ظواهر التغير البيئي، ولا سيما الأجزاءُ الشمالية من منطقة السودان الأوسط، ويعود جفاف الصحراء إلى موقعها الجغرافي وزيادة نسبة فقد المياه من الأرض،وبخاصةٍ المناطقُ الاستوائية ذات الأمطار المنخفضة والرطوبة النسبية[1].

ومن ثم كان للتغيرات البيئية تأثيرها الواضح في تكوين المجتمع ذاته وأنشطة سكانه الاقتصادية؛ حيث أدت تلك التغيرات البيئية. ولا سيما ظروف المناخ . إلى هجرة السكان من المناطق الأكثر جفافًا،وقد تمت الهجرة إلى منطقة السودان الأوسط مع ازدياد الجفاف تدريجيًا في منطقة الصحراء[2]، واضطر سكانها إلى البحث عن أرض خصبة ومياه وفيرة، ومثلت منطقة بحيرة تشاد أقرب منطقة تتوفر فيها هذه المقومات؛ لذلك اتجهت قبائل الصحراء للاستقرار فيها، ولعبت هذه القبائل دورًا ملموسًا في قيام الكيانات السياسية[3].

أسهمت التغيرات البيئية كذلك في تغيير الأوضاع السياسية ونشاط السكان في كانم، فرغم أن إقليم الكانم كان إقليمًا جاذبًا لعدد كبير من المجموعات البشرية، فإن التقلبات البيئية والمناخية ومواسم الجفاف المتتالية وما ترتب عليها من التصحر الذي شهدته المنطقة، أدت إلى جدب تربتها وشح مواردها، مما جعل السكان يعانون كثيرًا من نقص

(1) Nicholson, Sharon Elaine:A climatic chronology for Africa, p.162;Kyari, Mohammed: The Mune in Pre-Colonial, p.22- 23- 25.

(2) Nicholson, Sharon Elaine:A climatic chronology for Africa, p.166.

(3) صباح إبراهيم الشيخلي: الوجود العربي في كانم في السودان الأوسط في القرن 7هـ،13م، مجلة المؤرخ الصغير، العدد 35، 1409هـ، ص124.؛ مفتاح يونس الرباصي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، ص20.

الغذاء؛ مما يعني أن إقليم الكانم صار فقيرًا اقتصاديًا[1]، كما أن هذه البيئة على النحو السالف الذكر لم تسمح بأنشطة اقتصادية متنوعة للسكان، مما يوضح أنها صارت منطقة طاردة للسكان مرة أخرى، فبدأت موجة جديدة من التحركات السكانية؛ بحثًا عن موارد أكثر وفرة في منطقة حوض بحيرة تشاد[2].

وقد وجد المهاجرون ملاذهم في إقليم برنو جنوب غرب بحيرة تشاد، تلك المنطقة الأكثر جذبًا وأمنًا وخصوبة؛ ومع توافر سبل العيش في الأرض الجديدة تنوعت الأعمال والصناعات اليدوية والتجارية للسكان[3]، وهذا يعني أن ذلك الإقليم الجديد تمتع بمقومات بيئية جاذبة اقتصاديًا للعناصر البشرية، مما أدى إلى تسارع حركة المجموعات البشرية واستقرارها في الإقليم، وقد كان هذا الأساس القوي اقتصاديًا إيذانًا بتأسيس سلطنة جديدة ظهرت للوجود في الإقليم الجنوبي الغربي لبحيرة تشاد[4]. وبذلك تمتعت هذه المنطقة بمقومات بيئية جاذبة اقتصاديًا للعناصر البشرية، مما أدى إلى تسهيل الهجرة إليها، وساعد على استقرار الكثير من المجموعات فيها[5].

---

(1) وقد أكد عديد من الرحالة والمستكشفين أن كانم ظلت بلدًا مقفرًا. منهم المستكشف ألكسندر Alexander-Gosling الذي أوضح أن كانم يبدو بلدًا مقفرًا للغاية، لا شيء سوى غطاء من الكثبان الرمليةعلى نبتة السنط، التي تبيض فروعها بفعل الرياح والرمل، كل البلدات التي توقفت عندها كانت تعاني من نقص في الطعام، للمزيد راجع؛

W., A. F. R., F., D. W.: The Alexander-Gosling Expedition in the Sudan, The Geographical Journal, Vol. 26, No. 5 (Nov. 1905), p. 537

(2)Augustin F. C. Holl: The Cemetery of Houlouf in Northern Cameroon (AD 1500-1600): Fragments of a Past Social System, The African Archaeological Review, 1994, Vol. 12 (1994), p. 159.

(3)Baier, Stephen: Op.Cit., p. 48; Schultze, Arnold:Op.Cit., p.202.

(4) Alkali, Muhammed. Nur: Economic factors in the history of Borno under the Seifuwa, In: Usman. Bala And Alkali. Nur (Editors): Studies in the History of Pre-Colonial Borno, Northern Nigerian Publishing Company, Nigeria, 1983, p.61

(5) صباح إبراهيم الشيخلي: الوجود العربي، ص124. انظر أيضًا؛

وهكذا يتضح تأثير امتداد الموقع الجغرافي والتغيرات البيئية على التفاعل بين البيئة والإنسان، وهو ما يتبعه زيادة التحركات البشرية من أجل البحث والتنافس على موارد الأرض، ومن ثم حدوث التغيرات الديموغرافية للمناطق الأكثر تنوعًا في مواردها وأنشطتها الاقتصادية.

ويظهر مما سبق أن ظروف الموقع الجغرافي والتغيرات البيئية قد دفعت السكان للهجرة إلى أماكن مهيأة بشكل أفضل لقيام أنشطة اقتصادية ومنها النشاط التجاري، وقد وجد السكان في منطقة الجنوب الغربي من بحيرة تشاد الفرصة الملائمة للقيام بأنشطتهم الاقتصادية، ومنها النشاط التجاري. وهذا يبين من ناحية أخرى تأثير العوامل الطبيعية في التحول في طرق التجارة واتجاهات القوافل التجارية والتي لم تبق ثابتة على الدوام.

ثانيًا– تنوع الأنشطة الاقتصادية:

تنوعت الأنشطة الاقتصادية التي أثرت في ازدهار النشاط التجاري في سلطنة البَرْنُو، لتشمل الرعي والزراعة إلى جانب بعض الصناعات؛ كصناعة المنسوجات، والصناعات الحديدية والجلدية، وبعض الصناعات اليدوية البسيطة، فضلًا عن حرفة صيد الأسماك.

1. **الرعي:**

دفعت الظروف الطبيعة والجغرافية لمنطقة السودان الأوسط كثيرًا من السكان إلى امتهان حرفة الرعي فكانت الملجأ والملاذ[1]، لاسيما وأنها حرفة ذات ارتباط وثيق

Behm.E.: Das Land und Volk der Tebu, Inner-Afrika nach dem Stande der geographischenKenntniss in den Jahren 1861 bis 1863, Gotha, J. Perthes, (1862-63),p.32.; Alkali, Muhammed. Nur: Economic factors, p.64.

(1) Conte, Edouard: Tation et Tribut au Kanem: Considérations sur l'accumulationinégale dans uneSociétéagropastorale, Paideuma, Bd. 30, WirtschaftsethnologischeStudien, (1984), p.104

بأماكن توزعهم، علاوة على وجود مساحات شاسعة من المراعي مما جعل تربية الحيوانات نشاطًا مربحًا[1].

وقد ارتبطت حرفة الرعي بالنشاط الزراعي، فإذا ما توفرت الظروف الملائمة للزراعة تمكن الرعاة من ممارسة نشاطهم وتربية الأعداد المناسبة من الحيوانات،واحتلت الماشية المرتبة الأولى لنشاط الرعاة إذ كونت سلطنة البَرْنُو ثروة هائلة من رعي الماشية[2]، حيث هيمنت الطبقة الحاكمة على امتلاكها، فمثلما كان الرعي مرتبطًا بالأرض الزراعية والمراعي الخضراء، فإن الأرض وما عليها صار ملكًا للحكام والنبلاء في السلطنة تبعًا للنظام الإقطاعي القائم عليه إدارة الأراضي الزراعية، لذلك امتلك أفراد الأسرة الحاكمة أعدادًا كبيرة من الماشية، وعرف الرعاةُ في سلطنة البَرْنُو نوعين من الماشية؛ الأول وهو النوع الأفريقي ذو القرون الصغيرة، والثاني هو النوع الأسيوي المميز بالقرون المحدبة[3]، وعرفت برنو أيضًا تربية الأغنام والماعز، فضلًا عن الإبل والخيول[4].

ويلاحظ أن الرعي والتجارة كانا يمثلان ركنين مرتبطين من أركان الاقتصاد في الصحراء، حيث تناسبت حركة القوافل التجارية مع الدورة الموسمية للانتقال الرعوي،

(1)Baier, Stephen: Trans-Saharan Trade and the Sahel: Damergu, 1870-1930, The Journal of African History, 1977, Vol. 18, No. 1 (1977), p. 49.

(2)Schultze, Arnold: The Sultanate of Bornu, tr. from the German; with additions and appendices by P. Askell Benton, London, 1968, p.212.

(3)Notes on Bornu Province, p. 14; Schultze, Arnold: The Sultanate of Bornu, p.213; Page, Willie. F.:Encyclopedia of African, P.191

(4) بكر محمود محمد عطية: الجذور التاريخية للعلاقات التشادية المصرية، ندوة اللغة العربية في تشاد الواقع والمستقبل، ط١، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمي، 2003، ص٤٤٠؛ أحمد قاسم أحمد: طرق قوافل التجار والحج في السودان الأوسط وأثره في توطيد العلاقات بينه وبين الشمال والمشرق الإسلامي، الكتاب3، وصف الطرق وآثارها، مؤتمر طرق الحج في السودان، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم، 2016، ص6.

فتشارك الرعاة والتجار في الطرق الصحراوية معًا، إلى جانب ذلك كان الرعاة يشاركون في التجارة بطريقة غير مباشرة، حيث ينتقلون شمالًا خلال موسم الأمطار في أواخر أكتوبر ونوفمبر، للاستفادة من ازدهار المراعي، وعندما تعود القوافل التجارية متجهة نحو الجنوب في ديسمبر كانوا ينضمون إليها من أجل رعي الحيوانات والمشاركة في التجارة ببيعهم التمورَ ومِلْحَ الصحراء على طول الطريق(1)؛ فضلا عن ذلك فإن مهنة الرعي دعمت تجارة الماشية؛ تلك التجارة التي أصبحت مهنة مثمرة لعدد كبير من السكان وقام عليها جزءٌ مهمٌ من الاقتصاد البَرْنُوي(2).

إلى جانب ما سبق ذكره فإن حرفة الرعي وفرت للتجار أهم الوسائل الناقلة لسلعهم المصاحبة لهم في رحلاتهم وهي الإبل، ورغم قدم التفاعل بين حافتي الصحراء شمالًا وجنوبًا إلا أن ذلك التفاعل لم يكن على قدر كبير(3)؛ كما كان الحال مع وصول الجمل، ويبدو أن استعمال الجمل في وسائل النقل ببلاد المغرب كان له مبررات أكثر عمقًا، ذلك أن شمال الصحراء هو امتداد طبيعي لجنوب الصحراء الذي يشكل معه تكاملًا اقتصاديًا، ويقتضي تحقيقُ هذا التكامل بين الجانبين استعمالَ وسائل أكثر

(1)Page, Willie. F.: Encyclopedia of African, P. 191; Baier, Stephen: Trans-Saharan Trade, p.51.

(2)Linseele, Veerle and Haour, Anne: Animal Remains from Medieval Garumele, Niger, Journal of African Archaeology, Vol. 8, No. 2 (2010), p.167; Alkali, Muhammed. Nur: Economic factors, p.66.

(3) حيث كان التنقل في الصحراء يتم باستخدام الثيران، أو باستخدام عربات تجرها الخيول، أو بوضع الأحمال على ظهر الخيول مباشرة، وبغض النظر عما إذا كانت تلك الحيوانات قادرة على القيام بعملية النقل أم لا، فمما لا شك فيه أنه لم يتم بشكل منظم وعلى نطاق واسع إلا بعد وصول الجمل إلى شمال أفريقيا والصحراء للمزيد راجع؛

Norris, H. T.: Ṣanhājah Scholars of Timbuctoo, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 30,No. 3, Fiftieth Anniversary Volume, (1967), p. 634; Flynn, Sébastien: The Relationship between the Ottoman Empire and Kanem-Bornu, p.16.

ملائمة، فكانت الإبل أهمها، لما لها من قدرات[1]؛ فالإبل تستطيع تحمل الظمأ والجوع لأيام طويلة كافية لقطع مسافات طويلة، بالإضافة لقدرتها على نقل حمولات كبيرة، وأجواء الصحراء العامة في مختلف فصول السنة. يضاف إلى ذلك أن الإبل أقل في السعر من الخيل، ولا تكلف صاحبها كثيرًا من العلف، علاوة على أنها توفر لصاحبها اللحم إذا احتاج إليه[2]، كما أنها توفر الماء أيضًا، لهذا صارت الإبل هي الوسيلة الفاعلة التي يستعان بها لجلب السلع والبضائع والمؤن التجارية خلال تجارة القوافل عبر الصحراء[3]؛ مما أتاح قدرًا أكبر من التواصل بين شمال أفريقيا ومنطقة الساحل وجنوب الصحراء، ومن ثم فتح مجال أعمق للتجارة فيما بينهما.

2. الزراعة:

تُمثل الزراعة أحد أهم الأنشطة الاقتصادية لمنطقة السودان الأوسط بوجه عام وسلطنة البَرْنُو بوجه خاص، وقد ازدهرت نتيجة عدة عوامل أهمها؛ امتازت سلطنة البَرْنُو بفضل موقعها الجغرافي بتباين المناخ؛ حيث يسود المناخ الاستوائي في الجنوب، والمناخ الصحراوي في الشمال[4]؛ مما أدى إلى تنوع الحياة النباتية في السلطنة[5]؛

(1) بريك الله حبيب: الإبل في تجارة القوافل بتيندوف في القرن 19 و20 الميلادي من خلال الوثائق المحلية، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، 2018، ص161– 162.

(2) أحمد قاسم أحمد: مرجع سابق، ص6.؛ بريك الله حبيب: مرجع سابق، ص167.

(3)Botte, Roger: « Les réseauxtranssahariens de la traite de l’or et des esclaves au haut MoyenÂge: VIII e -XI e siècle », L’Année du Maghreb [Enligne], VII | 2011, https://doi.org/10.4000/anneemaghreb.1106 ; Flynn, Sébastien: The Relationship between the Ottoman Empire and Kanem-Bornu, p.17

(4) محمد السيد غلاب وآخرون:البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، الرياض، 1979م، ص523.

(5) موجز دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين، ط1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات، 1998، مادة "برنو" ص578.

فضـلًا عـن ذلـك فـإن الاعتمـاد علـى زراعـة الأراضـي المنخفضـة سـاعد علـى تـوافر مساحات شاسعة تصلح للزراعة[1]، إلى جانب تعدد مصادر المياه الصالحة للزراعة بفضل وجود البحيرات والأنهار، بالإضافة إلى الاعتماد على مياه الأمطار في بعض المناطق[2]، وبذلك وُجدت المراعي الغنية والأراضي الصالحة للزراعة، مما شجع على الاستقرار السكاني وتنوع الإنتاج الزراعي[3].

إضافة إلى ما سبق فإن نظام حيازة الأراضي القائم على النظام الإقطاعي المتبع مـن قبـل السـلطة، والـذي يسـمح بوضـع حيـازة الأرض فـي أيـدى النـبلاء والرؤسـاء المحليين[4]، ساهم في فهم طبيعة كل إقطاع وكيفية استثماره وزراعته بشكل مناسب[5]. وفي الواقع كان النظام الإقطاعي حافزًا كبيرًا للتطور الاقتصادي للسلطنة، والذي تم

---

(1) Schultze, Arnold: The Sultanate of Bornu, p.210

(2) حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة،1987، ص366؛ انظر أيضًا:

Wills, A.: the Story of Africa, London, 1969, P.39

(3) الشاطر بصيلي عبد الجليل:تاريخ وحضارات السودان الشرقي من القرن السابع الى القرن التاسع عشر الميلادي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1972م، ص411؛ حسن حلمي أبو الفضل علي العسيري: الحياة الاجتماعية في مملكة الكانم(479– 788هـ/ 1086– 1386م)، ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والنشر، دبي، 2020، ص28.؛انظر أيضًا:

Hogben, S.J.: The Muhammadan Emirates of Nigeria, Oxford University press,London, 1930, p.35-36

(4) ديرك لانج: ممالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، اليونسكو: أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، اليونسكو، 1988، ص256؛ إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية البَرْنُو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م،ص160؛ عمار مرضي علاوي الجميلي: المؤثرات الإسلامية في مملكة برنو الأفريقية، مجلة كلية الإمام الأعظم، العراق، 2011م، ص321.

(5) انتصار جابر يونس: الحياة السياسية، ص73، 81؛ للمزيد انظر أيضًا:

Spaulding, Jay&Kapteijns, Lidwien: Land Tenure and the State in the Precolonial Sudan, Northeast African Studies(ISSN 0740-9133), Vol. 9, No. 1 (New Series) 2002, p.56

تشجيعه بشكل أكبر من خلال إعادة التنظيم الإداري الذي نفذته السلطة الحاكمة في الأراضي الجديدة الواقعة تحت إدارتها، بدافع السيطرة على الموارد الاقتصادية المختلفة التي ميزت أراضي برنو[1]. لهذا تحولت الأسس الاقتصادية للسلطنة في برنو إلى زراعة الأراضي الخاصة بالرعي من أجل زيادة الإنتاج الزراعي.

ويُعد الجزء الشرقي من نهر يدسرام وبحيرة تشاد[2] الذي كثرت فيه السهول الطينية الشاسعة والمعروفة محليًا باسم فركي[3]،من أهم المناطق التي اعتمدت على الزراعة بشكل أساسي في إقليم برنو،وأيضًا مناطق الجنوب والجنوب الغربي؛ حيث تميزت بتربتها الطينية السوداء التي تساعد على الاحتفاظ بالماء، وعلى هذا النحو تنوعت المحاصيل الزراعية؛ لتشمل أصنافًا مختلفة من الذرة الرفيعة ثنائية اللون التي تعرف باسم مسكاوا masákwa، والدخن وهي محاصيل تنمو بشكل سريع[4]،علاوة على زراعة القطن الذي تطورت زراعته بين القرنين الرابع والثامن الهجريين/ العاشر والرابع عشر الميلاديين[5].

(1) ومن الملاحظ أن الزراعة في كانم كانت تعتمد على الاتحادات العشائرية (القبيلة)، وقامت على بعض المحاصيل المحددة التي أشار إليها العُمري بقوله: "وغالب عيشهم الآن الأرز، والقمح، والذرة، والتين، والليمون، والرطب، واللفت، والباذنجان انظر:مسالك الأبصارفي ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد عباس، ج4، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م، ص95.؛ حسن حلمي أبو الفضل علي العسيري: الحياة الاجتماعية في مملكة الكانم، ص28.

(2) Behm.E.: Das Land und Volk der Tebu, p.39; Boulvert, Yves.: Explorations en Afrique Centrale, 1790- 1930 Apports des explorateurs à la connaissance du milieu, Paris, 2019, p. 26

(3) Gronenborn, Detlef: Archaeological and Ethnohistorical Investigations along the Southern Fringes of Lake Chad, 1993-1996, The African Archaeological Review, Vol. 15, No. 4 (Dec. 1998), p.227; Maceachern, Scott: Burial Practices, Settlement, p.403.

(4) Arditi, Monsieur. Claude: Les populations de la moyenne vallee du Chari (Tchad): vie economique et sociale, Cahiers d'études africaines. Vol. 11 N°44. 1971, p. 620; Notes on Bornu Province, p.1

(5) Notes on Bornu Province, p. 14; Schultze, Arnold: The Sultanate of Bornu, p.211- 212; Candotti, Marisa: Manifatturetessili e sviluppo di

وإلى جانب هذه المحاصيل زُرع القمح والشعير والفول والفواكه الجافة والسمسم الذي يُستخلص منه الزيت[1]. وأخيرًا تأتي زراعة البطيخ والطماطم، وغالبًا ما تزرع هذه الأخيرة جنبًا إلى جنب مع البصل في حدائق مروية على طول النهر[2].

وأدى تطور الإنتاج الزراعي وتنوعه إلى نمو النشاط التجاري على نحو متسارع، ففي نهاية القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، قامت سلطنة البَرْنُو بتصدير عديد من المحاصيل، ويُعد القمح أهمها؛ حيث تم تصديرة إلى تكدة[3]، وكانت عملية التصدير للمنتجات الزراعية تتم إما في صورتها الأصلية أو بعد تحويلها إلى منتجات صناعية؛ حيث شهدت المنطقة بداية الاهتمام بعديد من الصناعات، بل تطور بعضها، كما أسهمت المحاصيل الزراعية في تنشيط حركة التجارة الداخلية في أسواق البَرْنُو، بالإضافة إلى سد احتياجات التجار القادمين من خارج السلطنة.

3. الصناعة:

ازدهرت الصناعة بفضل ما وفره النشاط الزراعي الذي شهدته سلطنة البَرْنُو من مواد خام قام عليها العديد من الصناعات، التي من أهمها وأكثرها رواجًا صناعة المنسوجات التي تُعد من السلع التي تدخل في إطار التبادل التجاري بين البَرْنُو وغيرها من السلطنات والممالك التي تجاورها، وفيما يأتي نتعرف على هذه الصناعة، وعلى أهم الصناعات التي عرفتها سلطنة البَرْنُو وأسهمت في ازدهارها التجاري، والتي يأتيعلى

---

statinellasavanaNigeriana (xiv-xviisecolo), Africa: Rivistatrimestrale di studi e documentazionedell'Istitutoitaliano per l'Africa e l'Oriente, Settembre 2002, Anno 57, No. 3 (Settembre 2002), p. 423

(1)Behm, E.: Das Land und Volk, p.39; Schultze, Arnold: The Sultanate of Bornu, p.212

(2) Notes on Bornu Province, p. 14; Boulvert, Yves: Explorations en Afrique Centrale, p. 26; Löhr, Doris: Lake Chad and the migratory routes to Borno: A linguistic trail?, University of Leipzig, Germany, 2005, p.663.

(3) ابن بطوطة: تحفة النظارفي غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط1، ج2، المطبعة الأزهرية، مصر، 1928م، ص205.

رأسها صناعة المنسوجات، والصناعات الحديدية، وصناعة الجلود، وبعض الصناعات اليدوية.

أ. صناعة المنسوجات:

عرفت منطقة السودان الأوسط الصناعات والأعمال اليدوية منذ فترة مبكرة، وبخاصة صناعة نسج القماش وصبغه[1]، وقد برع فيه السودانيون وأنتجوه بكثرة لدرجة استخدامه كشكل من أشكال النقود، وقد أكد على معرفة السلطنة تلك الصناعة ما أوضحه العُمري[2] المتوفي عام(749هـ/ 1348م) في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي من استخدام شرائط القماش المصَنعة محليًا التي يطلق عليها دندي[3]، وحينما زار ابن بطوطة المتوفي عام(779هـ/1377م) المنطقة في النصف الثاني من القرن نفسه؛ أكد أن برنو يصدر منها الأقمشة المصبوغة بشكل أساسي إلى مدينة تكدة[4]، وذلك مقابل النحاس المسبوك في شكل أقراص صغيرة[5].

(1)Dunbar, Roberta. Ann: Damagaram (Zinder, Niger), 1812-1906: the history of a central Sudanic kingdom, Ph. D. University of California, Los Angeles, 1970, p. 187

(2) مسالك الأبصار، ج4، ص96.

(3) دندي: يطلق هذا اللفظ في إقليم السودان الأوسط على العملة المستخدمة محليًا وتوصف بأنهاشرائط من القماش المصَنعة محليًا وكان طول الثوب من عشرة أذرع أو يزيد علي ذلك، ويتم التعامل به من ربع ذراع فأكثر. وكانت جميع الأشياء تقدر بسعر هذا القماش، انظر: المقريزي (ت 845هـ/1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ج2، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987، ص193.؛ العمري: مسالك الأبصار، ج4، ص96.؛ القلقشندي:صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص280. انظر أيضًا؛

Jacoba, Adamowa, etc.: survey of Africa, P.207

(4) التي تقع وسط الصحراء الشهيرة بمناجم النحاس والتي أصبحت منذ القرن الرابع عشر أحد أهم مراكز التجارة عبر الصحراء

(5) تحفة النظار، ج2، ص205.

وساعد على تقدم صناعة المنسوجات في السلطنة عدة عوامل شهدتها المنطقة وأسهمت في تعرفها على تلك الصناعة أولها؛ زراعة القطن وكثرة إنتاجه فيما بين القرنين الثاني والثامن الهجريين/ الثامن والرابع عشر الميلاديين، وازدادت مع اهتمام حكام برنو بزراعته على مساحات كبيرة حول نهر يوبي، منذ نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وقد أدت زيادة الإنتاج الزراعي إلى تحفيز مُصنعي المنسوجات المحليين للقيام على تلك الصناعة، بل والنبوغ فيها إلى حد التصدير والتوسع التجاري[1].

أما ثاني العوامل فيتمثل في ارتباط استخدام الأقمشة ارتباطًا وثيقًا بانتشار الإسلام في إقليم السودان الأوسط، والامتثال إلى تعاليمه من ضرورة ستر المسلم لجسده والالتزام بارتداء الزي الشرعي، فلما تمكن الإسلام من نفوس الرعية وتعمقوا في فهم تعاليمه ومبادئه عملوا على تطبيقها، وهذا ما أوضحه العُمري في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[2]. وعلى هذا يتضح أن زيادة الطلب على الأقمشة كان مرتبطًا بانتشار الإسلام.

وثالثها يتمثل في الاهتمام الذي شهدته تلك الصناعة من جانب الحكام، فعملوا على تعزيز تلك الصناعة وتطويرها لتقليل الاستيراد من الخارج، والدخول في حيز تصدير الأقمشة؛ ونتيجة لكثرة الأرباح الناتجة عن تجارتها، فإنها باتت موضع اهتمام تلك الأقاليم؛مما سهل انتشارها وتصنيعها؛ لذا بدأت اقتصادات برنو في التوسع بفضل تعزيز مواردها الداخلية وإنشاء شبكة مستقرة للتجارة بين الأقاليم.

وإذا كان البعض يعتقد أن صناعة المنسوجات كانت ضئيلة وذات إنتاجية ضعيفة نتيجة لبساطة المعدات المستخدمة في الصناعة مما يعوق إنتاج منسوجات عالية

(1) Candotti, Marisa: Manifatturetessili e sviluppo di statinella savana Nigeriana, p.422- 423.

(2) العمري: مسالك الأبصار، ج4، صـ 54.؛ صباح إبراهيم الشيخلي: الوجود العربي، صـ128.

الجودة بكميات تسد حاجاتها[1]، فإن الحقيقة تنافي ذلك الرأي تمامًا على الأقل وفقًا لمصادر ذلك العصر التي توضح أن المنسوجات المنتجة كانت عالية الجودة، والدليل على ذلك هو إنتاج الأقمشة المحلية واستخدامها في التداول كنقود[2]، مما يشير إلى جودتها العالية، وإلا ما استخدمت لهذا الأمر خاصة، فضلا عن أن سلطنة البَرْنُو تطورت فيها صناعة الآلات، وأثبتت الاكشافاتالآثارية استخدام هذه المنطقة للأنوال منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[3]. مما يشير إلى التطور الذي شهدته هذه الصناعات خلال الحكم البَرْنُوي.

ب. الصناعات الحديدية:

تُعد الصناعات الحديدية من أبرز الصناعات التي شهدت تطورًا في سلطنة البَرْنُو، وذلك لعدة أسباب، من أهمها حاجة السلطنة المتزايدة لإنتاج أدوات لحراثة الأرض وتمهيدها للزراعة، وبخاصة التربة الطينية الثقيلة القريبة من بحيرة تشاد، مما يزيد بشكل ملحوظ من كفاءة الزراعة[4]. وكذلك صناعة الآلات التي تستخدم في بعض الصناعات، ولا سيما صناعة المنسوجات، وكان الهدف من ذلك هو تقليل الاعتماد على استيراد تلك الآلات من الخارج[5]، وكان للحروب الكثيرة التي خاضها سلاطين البَرْنُو وحاجتهم المستمرة إلى الأسلحة دوافع مهمة أدت للاهتمام بهذه الصناعة.

واعتمدت الصناعات الحديدية في سلطنة البَرْنُو على معدني النحاس والحديد، فكان يتم استيراد معدن النحاس من الخارج بحسب ابن بطوطة[6]، أما الحديد كمادة خام

(1)Thornton, John: Precolonial African Industry and the Atlantic Trade, 1500-1800, African Economic History, No. 19 (1990 - 1991), p. 5

(2) العمري: مسالك الأبصار، ج4، ص96.

(3) Thornton, John: Precolonial African Industry, p. 10.

(4)Maceachern, Scott: Burial Practices, Settlement, p. 403.

(5) ديرك لانج: ممالك تشاد وشعوبها، صـ259.

(6) تحفة النظار، ج2، ص205.

فيستخرج بكميات كبيرة من جبال تبيستي؛ حيث يوجد الحجر الرملي الأسود الذي يغطي الحديد[1]، ومن عدد قليل من المراكز الرئيسية.

وقد احترفت عدة قبائل الحدادة، وكان من أهمها قبائل الزغاوة والتيبو والشوا العربية[2]، وتبعًا لأهمية هذه الحرفة فإنه وجد حي خاص للحدادين في مدينة الجيزدابي Gezdbi أو كما ذكرها الإمام أحمد البرنويجيزبي[3].

وقد برع البَرْنُويون في الصناعات الحديدية التي كانت عملية صهرها تستغرق وقتًا طويلًا ومهارة عالية أكدتها الأدلة الآثارية بالعثور على بقايا أفران صهر الحديد في مناطق متفرقة من السلطنة، وتميزت أفران صهر الحديد بصغر حجمها وتعددها[4]. فتمكن الحدادون من إنتاج مصنوعات عالية الجودة مثل السيوف والحراب والسكاكين والدروع والأبواب كأبواب المدن والقلاع والحصون، فضلًا عن القمصان المزررة والخوذ للفرسان والدروع الواقعية للخيول، وأدوات الزينة كالخلخال والأساور والقلائد، والمكاييل والأدوات الزراعية كالفؤوس والمحاريث[5]. وتبعًا لهذا التنوع في الصناعات الحديدية فإن هذا سيعود على السلطنة بالاكتفاء الذاتي لهذه الأدوات، هذا من جانب أما على الجانب الأخر فستدخل هذه الأدوات ضمن السلع المصدرة في التجارة من برنو إلى الدول المجاورة.

---

(1)Behm.E.: Das Land und Volk, p.39

(2) علي حامد خليفة الطيف: المراكز التجارية الليبية، ص108.؛ شكري صالح: السودان الأوسط، ص117.

(3)Lange, Dierk, and Berthoud, Silvio: Al-Qasaba et d'autresvilles de la route centrale du Sahara, Paideuma: MitteilungenzurKulturkunde, Bd. 23 (1977), p. 21-22,

وهذه المدينة تقع في الطرف الشمالي لواحة كوار كما أشار الإدريسي في منتصف القرن العاشر.

(4) Thornton, John: Precolonial African Industry, p. 8

(5) حمد محمد حمد الجهيمي: العلاقات التجارية بين طرابلس ومملكة الكانم – البرنو، ص12؛ انظر أيضًا:

Thornton, John: Precolonial African Industry, pp.8-20.

ج. صناعة الجلود:

عرفت سلطنة البَرْنُو أيضًا صناعة الجلود ودباغتها، تلك الحرفة التي تطورت مع انتشار المراعي وكثرة الحيوانات، واستخدمت جلود الأغنام والماعز والماشية في هذه الصناعة[1]. وقد أسهم هذا التصنيع المحلي في زيادة عملية البيع والشراء حيث صُدِرت هذه المصنوعات الجلدية بشكل أساسي إلى فزان وبلاد المغرب[2].

د.صناعات أخرى:

وإلى جانب هذه الصناعات السابق ذكرها فقد تعددت الصناعات اليدوية البسيطة الأخرى لتشمل تصنيع أواني الطبخ وتزيينها بزخارف تعكس طبيعة المجتمع، ودلت الاكتشافات الآثارية على وجود أفران لشوي اللحوم وتقديدها وتجهيزها للسفر والتجارة[3]، وعرفت السلطنة أيضًا حرفة أساسية أخرى تعلقت بالملح وهي معالجة الملح بالتبخير في الأفران المصممة خصيصًا لهذا الغرض[4].

وتشير الصناعات المتعددة التي عرفها المجتمع البَرْنُوي إلى حدوت تغييرات في اقتصادياته[5]، فأصبح بإمكان الحرفيين والسكان المتفرغين أن يكسبوا لقمة العيش بالعمل في تلك الصناعات، وكذلك كانوا قادرين على مقايضة منتجاتهم بالسلع والمواد الغذائية التي ينتجها جيرانهم،وقد ترتب على ذلك ظهور نوع من التخصص الإقليمي في إنتاج بعض السلع التي يخضع إنتاجها للظروف البيئية بالدرجة الأولى، ولقدرة السكان على استغلال إمكانات هذه البيئة بما يحقق حاجة الإنسان محليًا وتوفير فائض يمكن تصديره إلى الأقاليم المجاورة، وهذا كله يتم في صورة التبادل التجاري فظهر ذلك

(1)Dunbar, Roberta. Ann: Damagaram, p. 187.

(2)Schultze, Arnold: The Sultanate of Bornu, p.214; Alkali, Muhammed. Nur: Economic factors, p.64

(3)Gronenborn, Detlef: Archaeological and Ethnohistorical, p.245.

(4) Dunbar, Roberta. Ann: Damagaram, p. 187-188.

(5) Falola, Toyin; Heaton, Matthew M.:A History of Nigeria, , Cambridge University Press, 2008, p.20.

التنوع التجاري، وأوجد حالة من التوازن بين العرض والطلب للسلع المتبادلة بين المجتمعات المختلفة.

4. صيد الأسماك:

يُعد صيد الأسماك من الحرف الاقتصادية الرئيسة التي تميزت بها سلطنة البَرْنُو، ودعَمها الارتباطُ الوثيق بأماكن توزيع السكان حول ضفاف بحيرة تشاد والأنهار المحيطة بها، فامتهن عدد كبير من السكان مهنة صيد الأسماك بشكل فردي أو جماعي[1].

وقد اشتهرت بعضُ قبائل برنو الأصلية بالتخصص في مهنة صيد الأسماك، وكانت قبيلة يدينا Yedina إحداهن، غير أنها واجهت منافسة قوية لمهنتها من قبل الكانمبو الذين استقروا حول ضفاف بحيرة تشاد بعد هجرتهم إليها من كانم،ووجدوا في صيد الأسماك فرصتهم للعيش، فعملوا به وطوروا أدواته من أدوات خشبية الصنع إلى حديدية،وقد ساعدتهم تلك المهنة في احتراف التجارة في الأسماك[2]، التي يتم بيعها إما طازجة أو مملحة لذلك تُعد الأسماك من المصادر التي اعتمد عليها كثير من السكان في غذائهم وعملهم[3].

هكذا كان لتنوع الأنشطة الاقتصادية التي ميزت منطقة السودان الأوسط عاملًا محفزًا لأن تصبح واحدة من النظم الاقتصادية الرئيسة التي أدمجت في العالم الإسلامي لاسيما مع تقديمها عددًا من السلع الثمينة التي لا غنى عنها لبلدان العالم الإسلامي فتبع ذلك نموٌ للنشاط التجاري وازدهارٌ اقتصاديٌّ شهدته السلطنة.

---

(1) Claude Arditi: Les populations de la moyennevallée du Chari (Tchad): vie économique et sociale, Cahiers d'ÉtudesAfricaines, 1971, Vol. 11, Cahier 44 (1971), p. 625.

(2)Alkali, Muhammed. Nur: Economic factors, pp.65- 66.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص20؛ الدمشقي: نخبة الدهر، ص 241.

- **خاتمة:**

بينت الدراسة أن سلطنة البَرْنُو احتلت موقعًا متوسطًا لعب دورًا مهمًا في التطور التجاري لمنطقة السودان الأوسط ككل بوصفها محطة للقوافل التجارية،وأدى هذا الامتداد الجغرافي إلى تنوع مواردها الطبيعية التي جعلت من أسواقها مجالا للقادمين إليها سواء من شمال الصحراء أو المناطق المتاخمة لها جنوب الصحراء، مما أتاح قدرًا أكبر من التواصل بين شمال إفريقيا ومنطقة الساحل وجنوب الصحراء ومن ثم أدى ذلك إلى فتح مجالٍ أعمق للتجارة بينهم.

أكدت الدراسة أن بحيرة تشاد تمثل أحد أهم العوامل المؤثرة على التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمنطقة، ولا سيما أنها سمحت بالانتقال والهجرة للسكان فكانت سببًا لتوافد عدة مجموعات عرقية استقرت حول شواطئ البحيرة، وما تبع ذلك من تطور للنظم الزراعية والرعوية حول البحيرة فضلًا عن التبادل التجاري والثقافي بين شمال الصحراء وجنوبها.

أوضحت الدراسة أن تنوع الأنشطة الاقتصادية التي ميزت سلطنة البَرْنُو كان محفزًا لأن تصبح واحدة من النظم الاقتصادية الرئيسة، ولاسيما مع ظهور نوع من التخصص الإقليمي في إنتاج بعض السلع، وتوفير فائض منه يمكن تصديره إلى الأقاليم المجاورة، وأنتج هذا التبادل التجاري نوعًا من التنوع التجاري بين المجتمعات المختلفة، وتبع ذلك نموٌ للنشاط التجاري وتطور اقتصادي وازدهارٌ واضح شهدته السلطنة.

الملاحق:

1. الخرائط:

خريطة رقم (1) توضح موقع سلطنة البَرْنُو

بتصرف عن/ حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة. 1987، خريطة 175، ص 367.

خريطة رقم (2) توضح طرق التجارة عبر سلطنة البَرْنُو

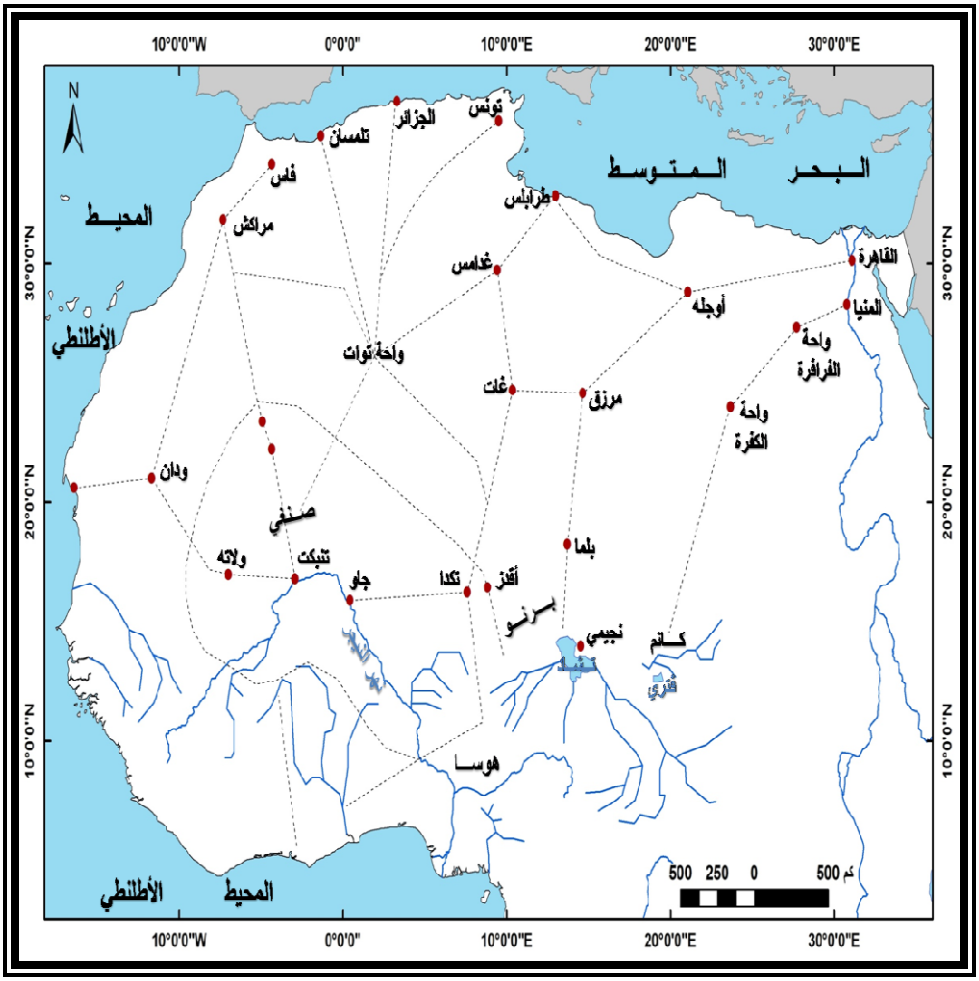

Cory, Stephen.: The Man Who Would Be Caliph: A Sixteenth-Century Sultan's Bid for an African Empire, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 42, No. 2 (2009), p.183.